



# تاريخ دمشق

٣٦٠ - ٥٥٥٥

تصنيف

الرئيس الأجل مجد الرؤساء أبو يعلى

حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي

المعروف بابنه القلاسي

٤٧٠ - ٥٥٥٥ هـ / ١٠٧٧ - ١١٦٠ م

مخبر

الدكتور سهيل زكار

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٣ م - ١٤٠٣ هـ

دار حسان

للاطباعة والنشر

( لصاحبها عبد الهادي حرصوني )

- دمشق - ص ٣٠ ب ٢٢١٨

للهدوء  
الله لا يبتغي ربي التي فيها امن وموتى  
العزوبة والصلابة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

لقد كان للفتح الاسلامي للشام ، أعظم الآثار على هذه البلاد ، من ذلك تثبيت طابع العروبة فيها ، وتبديل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية ، فعلى صعيد السياسة الداخلية والخارجية تحول دور القبائل العربية من الهامش الى الصميم ، وعلى صعيد المدن ، نجد قبل الفتح أن مدينة القدس كانت أهم مدن جنوبي بلاد الشام ، تتلوها دمشق ، وأن أنطاكية كانت أهم مدن الشمال وأبرزها دوراً ، تتلوها قنسرين ، لكن بعد الفتح ، وبسبب انتشار الاسلام ، وانسلاخ البلاد عن الامبراطورية البيزنطية ، وقيام الحروب الدائمة معها ، ثم قيام السلطان الأموي في الشام ، كل هذا أدى الى تفهقر القدس حيث تقدمتها دمشق ، وتخلفت في ذات الوقت مدينة بصرى ، واضمحلت دورها كثر تجاري لبلاد الشام على بوابات شبه جزيرة العرب ، وتأخرت أنطاكية في الشمال ووصلت قنسرين الى حالة الاحتضار ، وتقدمت حلب وتبعثها معرفة النعمان .

ووضح هذا الحال في العصر الأموي ، وتوطدت أركانه ، وبعد قيام الخلافة العباسية ، وانشغالها المطلق بمشاكل خراسان وبلاد ما وراء النهر ، واهمالها للحدود مع بيزنطة ، وقيام نظام الثغور والعواصم صارت حلب مركز

شمال الشام سياسياً واقتصادياً وعقائدياً وثقافياً ، وغدت دمشق هي المسؤولة عن جنوب الشام .

وتنافست كل من حلب ودمشق ، ووضح للعيان أن أحداث الشام باتت تدور على محورين أساسيين واحد في الشمال [ حلب ] وآخر في الجنوب ، [ دمشق ] ، ويمكن تعقب جذور هذه القضية الى العصر الأموي ، فبعد وفاة يزيد بن معاوية حدث صراع شديد على الخلافة والسلطة وانقسم الشام الى معسكرين : واحد تزعمته قبائل كلب في الجنوب ، وآخر تزعمته قبائل كلاب في الشمال ، وكانت كلب قبائل يمانية الأصل ، وكلاب عدنانية ، وفي معركة مرج راهط انتصرت كلب على كلاب ، وأعيد تأسيس الحكم الأموي ، بزعامة الفرع المرواني ، لكن الشام انقسمت بشكل فعلي الى دارين : دار في الجنوب لكلب ومن لف لنها ودار في الشمال لكللاب ومن قاربها بالنسب ، وفصل بين هاتين الدارين خط عرضاني انطلق شرقاً وغرباً من بلدة الرستن على العاصي .

وعندما دب الضعف في قلب الخلافة العباسية كانت الأجزاء الشمالية من بلاد الشام بزعامة حلب ، من أقدم البلدان التي أعلنت انفصالها ، وقامت فيها دولة مستقلة هي الدولة الحمدانية بزعامة سيف الدولة الحمداني .

ومن حلب حاول سيف الدولة مدّ سلطانه الى الأجزاء الجنوبية من الشام ، فدخل دمشق ، لكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بها ، فقبل استقلال حلب ، كانت مصر الإسلامية قد استقلت عن جسم الدولة العباسية ، وقامت فيها الدولة الطولونية ، ومارست الدولة الطولونية السياسة الخارجية التقليدية لمصر المستقلة بالحق الشام ، وقد نجحت - مع الدول التي تلتها في حكم مصر - في الاحتفاظ بالجزء الجنوبي من الشام ، وأخفقت في البقاء في الشمال .

وفي حلب أقام سيف الدولة بلاطاً حاكي فيه بلاط بغداد ، وحوى هذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن مع الشعراء والأدباء ، وشهدت بلاد

الشام بشكل عام نشاطاً ثقافياً كبيراً و متميزاً ، حيث عبر عن دور الشخصية الشامية العربي ، وعبرت كل من حلب ودمشق عن شخصيتها بالاتجاه نحو إنتاج تواريخ محلية ، وبالفعل جاء الى الوجود عدد من المؤرخين منهم من عاش في المعرة أو مدينة حلب فأرخ لمدينة حلب والجزء الشمالي من البلاد مع مناطق الجزيرة ، ومنهم من عاش في دمشق أو اهتم بها ، فكتب في تاريخها إنما مع التعلق بالديار المصرية والاهتمام بها ، وإذا كنا لسنا في موضع عرض لمراحل حركة التدوين التاريخي في الشام يكفي أن نذكر أن هذه الحركة وصلت الذروة على يدي ابن عساكر حين كتب تاريخ دمشق ثم ابن العديم حين كتب « بغية الطلب في تاريخ حلب » إنما يلاحظ هنا بأن هذين الكتائين العملاقين قد صنفا حسب نمط كتب التراجم ، وما جاء في بدايتي كل منها من عرض تاريخي حسب الوقائع والحواليات ، شمل أخبار فتوح الشام ليس إلا ، وتميز ابن العديم عن ابن عساكر بأنه صنف كتاباً مفرداً أوقفه على العرض التاريخي الإخباري لمدينة حلب ، وهو كتابه « زبدة الحلب من تاريخ حلب » ولم يفعل ابن عساكر هذا ، لطبيعة منهجه وثقافته ، فهو إمام بالحديث في الدرجة الأولى ، ولذلك جاء كتابه الذي صنفه لدمشق مهتماً بطبقات المحدثين والعلماء ، ومولياً قليل الاهتمام لمن سواهم ، وخاصة رجال السلطة .

إن هذه الثغرة بالنسبة لدمشق قد جرى تداركها من قبل ثلاثة أجيال من المؤرخين : اثنان من العراق ، وثالثهما وهو المهتم من دمشق الشام ، وأول هؤلاء المؤرخين هو ثابت بن سنان ، الذي كان واحداً من أفراد آل الصائبي ، الأسرة التي اشتهرت بالطب فنبغ منها عدد من الأطباء خدموا الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم ، ويذكر بعض من ترجم لثابت بأنه كان مختصاً بخدمة الخليفة الراضي [ ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٠ م ] وأنه كان بارعاً بالطب ، وتولى تدبير المارستان في بغداد ، وخدم عدداً من الخلفاء بعد الراضي ، ومن المرجح

أن ثابتاً قد توفي سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م ، وكان ثابت بن سنان كمعظم بقية آله متميزاً الى جانب كونه طبيباً باهتمامه بالتاريخ وتدوينه ، وقد كتب عدداً من التواريخ أشهرها واحد ذيل به - مع شيء من التداخل - على تاريخ الطبري ، وله أيضاً كتاب « مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد » .

وبعد وفاة ثابت جاء هلال بن المُحَسِّن بن ابراهيم الصابئ ، وهو قريبه حيث أن جده ابراهيم هو ابن أخت ثابت ، لذلك ذكرت بعض المصادر تجاوزاً بأن ثابت هو خال هلال بن المحسن ، وكان هلال في بداية حياته على عقيدة أهل الصابئة ثم دخل الاسلام ، وقد ولي ديوان الانشاء في بغداد ، وعاش فترة تاريخية هامة جداً ، عاصر أحداثها وعرف أخبارها عن كثب وبشكل وثائقي ، فقام بتدوينها في عدد من الكتب مفردة مثل كتابه في تاريخ الوزراء ، أو جاءت كذيل لكتب ثابت بن سنان ، ففي «مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي نقراً : « وكان هلال من كبار العلماء الأدباء ، وله التاريخ الذي ذيله على تاريخ ثابت بن سنان ، وبدأ به من سنة احدى وستين وثلاثمائة الى سنة سبع وأربعين وأربعمائة » ، وأكد هذا التقطعي في تاريخ الحكماء حيث قال : « ثم كتاب هلال ابن المُحَسِّن بن ابراهيم الصابئ ، فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتم عليه الى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولم يتعرض أحد في مدته الى ما تعرض له من أحكام الأمور ، والاطلاع على أسرار الدول ، وذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع ، وتولى هو الانشاء أيضاً ، فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه ، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد ابن هلال ، وهو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين وأربعمائة » .

في الحقيقة إن ثابت بن سنان أنهى كتابه بحوادث سنة ٣٦٥ هـ ، وأن هلال ابن المُحَسِّن ابتداء كتابه الذي ذيل به على تاريخ ثابت بحوادث سنة ٣٦٠ هـ ، وأنها بأخبار سنة ٤٤٧ هـ ، فقد كتب ابنه غرس النعمة محمد بن هلال في مقدمة

كتابه في التاريخ الذي دعاه باسم « عيون التواريخ » والذي أرخ به للفترة الممتدة ما بين ٤٤٨ الى ٤٧٩ هـ ، وجعله بمثابة ذيل لتاريخ أبيه ، ذكر الأسباب التي حدثت به الى تأليفه بقوله : « وبعد ، فكان أبي وصي إليّ لما أحس بقدم الوفاة ، ويُس من أيام الحياة ، ولمعت له لوامع المنية ، وقرعت سمعه قوارع البلية ، رغبة في زيادة الذكر ونمائه واتشاره وبقائه ، بصلة كتاب التاريخ الذي ألفه الى آخر سنة سبع وأربعين وأربعمائة تأليفاً يعجز عنه من يروم مثله ، ويفتضح فيه من يتعاطى فضله ، إذ هو السحر الحلال ، والعذب الزلال ، والصادر عن أوحد دهره ، وفريد عصره ، وشرع فيه وقد أنت عليه سنة [ ولد هلال سنة ٣٥٩ هـ ] ، جرب فيها الأمور ومارسها ، وخبرها ولابسها ، وأنا عار من جميع صفاته ، وخال من سائر سماته » .

وابن اللبون إذا ما لسز في قرن لم يستطع صولة البزل القنا عيس  
لكن قوله مستمع ، ومرسومه متبع ، وأمره مطاع ، ورأيه غير  
مضاع .....

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، وفي يوم الأربعاء سادس عشر رمضان توفي والدي ، الرئيس أبو الحسن ، هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال ، ومولده الأحد ، النصف من شوال سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فانتقض السؤدد بمصابه ، واثلم الفضل بذهابه » .

لسوء الحظ أن معظم مواد التراث التاريخي لأسرة آل الصابئ هي بحكم المفقود ، ولقد أكثر سبط ابن الجوزي النقل من تواريخ كل من ثابت وهلال ، وقام باحدى نسخ كتابه مرآة الزمان بنقل جميع محتوياته كتاب غرس النعمة ، وقد استخرجت هذا الكتاب من مخطوطتين في باريس واستانبول وحققته وسأدفعه للنشر قريباً إن شاء الله تعالى ويسر .

هذا ووصلنا كتاب مخطوط صغير جاء بمثابة مختصر لتاريخ ثابت بن سنان ، ضمنه مختصر أخبار القرامطة ، ويتألف هذا المخطوط من إحدى